قصة
غول الطعام
نصير حسين

غولُ الطعامِ

بوقار
بيت الأدب

نصير حسين

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

نوع العمل : قصة

الكاتب : نصير حسين

تدقيق : ندى الجندي

تصميم الغلاف : سمر محمد

تصميم داخلي : سارة عيد

تعبئة وتنسيق : سارة عيد

فريق عمل بوقار " بيت الأدب " للنشر الإلكتروني

https://www.facebook.com/DarBovaar

إلى ابنة أخي الغالية (زُليخة عماد القيسي)

أُهديكِ هذهِ القصة إهداءً خاصًّا،

وأسأل الواحد الأحد أَنْ يحفظكِ بحفظِهِ يا ابنتي.

عمكِ: نصير

بيت الأدب

بوقار بيت الأدب Bouvar

سلامٌ على القلوب الطيبة الصافية، كيف حالكم أيها الأصدقاء؟ أنا زهرة، أَعيشُ في بغداد عاصمة ألف ليلة وليلة والسندباد، عمري خمسة عشرة عامًا بالتمام والكمال، جئتكم اليوم بقصة حدثت قبلَ سنينٍ طويلةٍ، بطلتها فتاةٌ بعمري بالضبط، اسمها (رحيق)؛ يتيمةُ الأبِ، تعيشُ مع أُمها وعمها زوج أُمها، وأربعة مِنَ الإخوةِ غيرِ الأشقاءِ لها، ولدين وبنتين.

كانت أمها تعاملها بقسوة، لا تكترثُ لأمرها، بل أحالتها لأشبهَ بالخادمةِ؛ تتحملُ عبءَ البيتِ، فَتنظفَ المكان، وَتَعتني بالصغارِ، وتعدُ الطعامَ للكبارِ، فهِي محلُ نقمةٍ وإزعاج لأُمها التي تحملتها وزرَ أمر ما اقترفت، ولا دخلَ لها فيهِ، فبعدَ ولادتِها بأُسبوعٍ خسرَ والدها عمله كمشرف على العمال في مصنع الغزل والنسيج، لتتحول الحياةُ البسيطةُ إلى جحيم، ثُمَّ ما لبثَ أَن استقرَ في عملٍ آخر حَتّى طُردَ منهُ، تنقل مِن عملٍ إلى عملٍ، ويومَ أتمت رحيقُ سنتها الأولى حَصلت الكارثة الكبرى؛ سيارة مسرعة تقطع الطريق باستهتار، ورجلٌ رث الثياب يجتاز الطريق من منطقةِ العبورِ، الإشارةُ المروريةُ حمراء، لكنّ السيارة ما اكترثت، صدمت الجسد المسكين لتلقيهُ على جانبِ الطريقِ بلا حراكٍ!

بوقار بيت الأدب Bouvar

اضطرت الأم المسكينة إلى العملِ في البيوتِ خادمة لسنواتٍ خمسٍ حَتّى عادَ أخو زوجها من مَهجرهِ، فعرضَ على أرملة أخيهِ الزواج، وافقت على الفور، عاشت الأسرة ثلاثة أعوام على خيرِ حالٍ، وطيب عيشٍ، وفي يوم مولد رحيق التاسع؛ جاءَ خبر غرق باخرة في البحر الأبيض المتوسط وعلى متنها بضاعةُ "خليل" عم رحيق، تحول البيت المشرق إلى مظلم موحش، انغمسَ خليل في شربِ الخمر، معتمدًا على ما يملك من عقار قديم في حي شعبي لينفق على أسرته وخمرته، بعد الحادثةِ الأخيرة انقلبت حياة رحيق رأسًا على عقبٍ؛ معاملة بشعة كأنّها سبب ما حصل وعليها دفع الفاتورة، فصارت تعيش في غرفة صغيرة رطبة حقيرة بجوار المطبخ، مكان منعزل موحش لا شباك فيه.. ليس فيها من الأثاث الكثير؛ فراش على الأرض، غطاء واحد مع وسادة.. في الشتاء يسكنها البرد، وفي الصيف لا يفارقها الحر، لا يسمح لها بالاستحمام إلا مرة كلّ أسبوعين.

إذا تأخرت في عمل أو قصَّرت في واجبٍ وُكِّلت بهِ، ضُربت أشدَ الضربِ من قِبلِ سيدة المنزل أُمها، فهي بنظرها وجهُ الشؤم.

بوقار بيت الأدب Bouvar

الآن أترككم معَ رحيق وما حدثَ لها، ثُمَّ أعود إليكم قُبيل النهاية، تذكروا اسمي جيدًا؛ أنا زهرة.

***

بوڤار
بيت الأدب

بوڤار
بيت الأدب
Bouvar

- إلى متى تستمرين في حمقكِ يا وجه المصائب، وقدم الشؤم؟

عينان جفت منهما الدموع، وكلمات رجاء مع اعتذار، والقلب يعتصر كالعادة موجوعًا.

- آسفة، سقط الصحن مني غصبًا عَني.. لم أقصد.

علا الصوت أكثر..

- أتجادليني وتقاطعينني وأنا أتكلم؟!

لطم، ثُمَّ جر من الشعر، فمسحٌ لأرضِ المطبخِ بالجسد.

قالت:

- تكملينَ عملكِ دونِ إصدارِ أَيّ صوتٍ، ثُمَّ تعودين مكانكِ، إياكِ أَن تكسري رغيفَ خبزٍ، أو تأخذي بيضة، أو شيئًا من خضار، اليوم أنتِ مِنَ العشاءِ محرومةٌ، كذلكَ صباحًا مِنَ الفطورِ.

انتهى العملُ في المطبخِ، وإلى مكانِ النومِ الوجهة.

مصباحٌ كهربائي يتيم ينير الغرفة خجلًا، ثُمَّ استلت مِن تحت الوسادة مرآة صغيرة، وبالوجهِ المراهقِ بدأَ التأمل، والتركيز على العينين المنكسرة بأَلم.

أُعيدت المرآة مكانها، ثُمَّ دُست اليدُ تحتَ الوسادة أَعمق لِتُخرِجَ كيسًا أسودَ صغيرًا.

فُتِحَ الكيسُ، أُخرجَ خبزٌ.. الفمُ يقطع ويمضغ مبتسمًا، والصوتُ منخفض، تَخرج الكلمات تتمايل بينَ الحزنِ والاستهزاءِ.

- امنعي عَني الطعام، لا يهم، فزوجكِ يتركُ الكثير منهُ حينَ يثمل في آخر الليل.

ضحكةٌ صغيرةٌ..

- أَتركُ لكم الخبزَ، والبيض، والخضر؛ كلوا بألف عافية وهناء.

أَلقى الرأسُ ثقل همومه على الوسادة، واستسلم للنوم دونَ كثيرِ تأملٍ، ولا طويلِ تقلبٍ.

كالعادةِ الحلم نفسه، والصوت ذاته؛ صوت من بعيد يناديها، وأشياء غريبة، ووجوهٌ مريبةٌ، ثُمَّ جزيرةٌ جميلةٌ مطرزةٌ بحدائقَ غناء.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- هل انتهى الليلُ بهذهِ السرعةِ؟! ما شبعتُ مِنَ النومِ، لا بأس أُعوضُ الليلةَ القادمةَ، الآن عليّ القيام بأهم ما يجب القيام بهِ ككلّ يوم؛ النظر في المرآة، والتأمل في وجهي الجميل... ما هذا ما أراع؟! كيف حصل ومتى ولماذا؟! أيعقل!! ما هذا الشيء الذي ظهر على جبيني؟! أُفٍ، هذا ما ينقصني؛ بثرةٌ كبيرةٌ بين العينينِ أعلى الجبين.. اليوم أَضحى أُضحوكَةَ.. كيفَ نَمَت وكبرت هكذا في ليلة واحدة؟! عجبًا كلّ شيءٍ فِيَّ مبالغُ فيهِ حتى أنتِ أَيتها البثرةُ!

أُعدَ طعام الفطورِ، الأُسرة مُتحلقةٌ حولَ المائدةِ ما عدا رحيق التي تصولُ وتجولُ حولَ المجتمعين؛ هذا يريدُ ملعقةً، تلكَ تصيح خبزًا، صغيرٌ يُسكبُ لَهُ الحليبَ فِي القدحِ.

الرأس مطأطأ خوفًا مِن أن يلاحظَ أحدهم المشكلة.

الأم تتكلم..

- أجل، عليكِ طأطأةُ رَأسكِ لِفعلتكِ أَمسُ.. هيا اجلسي معنا، وكلي فطوركِ قد عفوتُ عنكِ.

بوقار بيت الأدب Bouvar

مُنتهى الأدب!

- شكرًا أُمي.

انزعاجٌ على الوجهِ طفا.

- لا تناديني بهذا الاسم.. لا أريد سماعهُ مِن فَمكِ.

الصغير (عبد الحميد)، يصرخُ منتبهًا، لما فِي أختهِ الغير شقيقة مِن تغيّر.

- ما هذا الّذي على وجهكِ أختي؟!

خفقَ القلبُ مضطربًا، والملامح تقلبت خوفًا.

الأُم صرخت مؤنبةً.

- لا تقل أختي.. إياك أن أسمعكَ تنطقها مرةً أخرى.

بنيةٍ صادقةٍ.

- هِي أُختي بالفعل، ولا اسم آخر يليق بِها غيرهُ!!

الجسد أخذ ينتفضُ غضبًا.

- هيا انهضي، أنا الملامة، سأُفسد تربية أبنائي بقلبي الساذجِ.

بعدَ المغادرة السريعة امتثالًا للأمر من قبل المأمورة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

عادت الأُم ترسمُ ابتسامةً مفتعلةً، وترققُ صوتها لتجعلهُ ذا نبرةٍ حنونةٍ، ثُمَّ توجهَت بالكلامِ للابنِ.

- نَادِها كَما يناديها الجميع هنا بـ"أنتِ" هِي تعرفُ هذا الاسم، وتحبهُ.

الهدوءُ سادَ، لا يسمعُ غير صوتِ الملاعق، والأفواه التي تمضغ.

فِي المطبخِ..

- تعالي يا قطعةَ الخبزِ، هيا ادخلي مرحبًا بكِ، وأنتَ أيّها العزيزُ بيض مسلوق تفضل الطريقُ لكَ عُبد، إلى أسفل حيثُ أصدقاؤك ينتظرون.. نعم، نعم، أمواج الشاي المحلى بحر المرح الذي يحمل الجميع إلى حيث الأمان والاطمئنان.

ضحكةٌ بريئةٌ...

استئنافُ العملُ دونَ شكوى، واليوم لا يخلو منَ التوبيخِ ممّن قررت لعبَ دورِ السيدةِ المتسلطةِ.. كذلكَ الأختان تلعبان دورَ الطفلتين المدللتين بغباءٍ كبيرٍ.

مَرَّ الوقتُ، حلَ منتصف الليل، والعمُ زوج الأُم انتهى من شربِ الخمر، فتوسل بقدميهِ أن تحملاهُ حَتّى مخدعهِ، إلا أَنّ رَأسهُ كان أَدهى، وعلى الأريكة استقر، ثُمَّ فمهُ مع أنفهِ للشخيرِ أعلنَ.

بوقار بيت الأدب

- عمي.. يا عمي.. نمتَ؟

ابتسامةٌ لئيمةٌ.

- نعم، نامَ، اليوم قد تركَ الكثيرَ مِنَ الطعامِ.

نظرةٌ إلى الجثةِ، ثُمَّ ابتسامةٌ.

- شكرًا، أنتَ الوحيدُ في هذا البيت الّذي يعطيني ما أريدُ.

جمعٌ للصحونِ، فَانطلاقٌ سريعٌ لتهريبِ المنوعاتِ فِي كيسٍ قبلَ أن تصحوَ السيدةُ، وتخرجَ فِي دوريةٍ ليليةٍ.

- جيرِ، اللحوم المشوية، وقطع الجبن الفاخر.. نعم، هذا كلّهُ، لكنّ السلطةَ أتركها كذلك الزيتون حَتّى لا أثيرَ الشكوكَ.. هذهِ الأشياءُ مكانها الثلاجة.

حُملَ الكيسُ بكلِّ حذرٍ، ثُمَّ انطلاقٌ إلى مكانِ النومِ.

أوصدَ البابُ جيدًا، والفم لا تفارقهُ الابتسامةُ.

أُشعلَ الضوءُ، والمرآة قبل كلّ شيءٍ أُخرجَت.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- ما هذا؟! يا إلهي كبرت البثرة كثيرًا، قبل ساعةٍ اختلستُ النظرَ إليكِ من خلال مرآة الحمام، فلم تكوني بِهذا الحجمِ؟! لا أظنُّ مرآتي تكذبُ عليَّ، فمرآة الحمام أدقُ وأصدقُ.

فُتحَ الكيسُ، ونشر الطعام، وبدأ بشغف، وغبطة الالتهام.

امتلأت البطن، تسربَ الفرحُ الطفولي إلى النفس رغمَ المعاناةِ.

وضعَ الرأسُ المليءُ بالأملِ على الوسادة.

لحظات..

- ما هذا؟!

اليدُ تبحثُ متحسسةً الجبين.

- أنفٌ آخرُ نما في جبيني!

أعيد فتح الضوء، واستلت المرآة مرة أُخرى.

- إِنّهُ أَنفٌ أَو شيءٌ شبيهٌ بهِ؛ أحمرُ اللونِ ملتهبٌ، حرارتهُ عاليةٌ.. لكن لِمَ هو لا يُؤلِم؟!

دموع سالت على الخد..

- سأَغدو غدًا أضحوكةَ العالمِ أجمع، أَلا يكفي أنّهم يصفوني بشتى الأوصاف الذميمة بسببِ وزني الزائد، أرى بعد هذا الأنف الجديد سأُنعت بوحيد القرن، هذا ما سأسمى به غدًا.

بكاء صامت بحرقة، ثم قرار مفاجئ: أعود لنومي لا فائدة أحس أني في يوم سوف أتحول لضفدعة، وأيضا ضفدعة قبيحة.

عاد الرأس للاستقرار على الوسادة، ثُمَّ أغمضت العينان جبرًا.. دقائق.

- ما هذا الإحساس الغريب في الورم.

لجوءٌ سريعٌ إلى المرآةِ، وقبل استقرار البصر على الهدف كانَ أمرٌ قد حصلَ.

- آه، ألم ظهر فجأة...

تركيز، وتدقيق.

- أنتَ أيّها الورم العجيب، ماذا حصل لكَ، انفجرت؟!.. أفضلُ شيءٍ لي فعلتَ.. أَخرج ما في داخلك أرجوكَ، أريدك غدًا صباحًا بمستوى الأرضِ التي منها خرجت.

لحظة تفكير بعدها اتخذ القرار الجريء؛ أتشجعُ، وأقوم بعصره، وأساعده ليخرج ما فيه، فيبدو أن ما في الداخل لا يرغب بالخروج، لم أرَ منه سوى مادةٍ لزجة شفافة.

قُربَ الكفُ الملوث بالسائل من الأنفِ.

- عَجبًا رائحتهُ جيدة، لا تبعثُ الاشمئزازَ.

لحظة تفكير أُخرى..

- كيفَ يثارُ الاشمئزازُ لدي، وأنا رائحتي إن شمها دبٌ هرب.

الإبهامُ، والسبابةُ من اليدِ اليمنى يقتربان بخجلٍ، وحذر، بينما اليدُ اليسرى مشغولةٌ بإحكامِ القبضةِ على المرآةِ.

العينانِ تراقبانِ العمليةَ، وتنقلان الصورةَ بوضوحٍ إلى العقلِ حَتّى يتمكنَ من إرشادِ الإصبعين بشكلٍ صحيحٍ.

بدأَ العملُ، الأمرُ في منتهى الغرابةِ.. لا ألمِ أثناءَ مضايقةِ البثرةِ الكبيرةِ لإجبارها على إخراجِ ما فيها، لا قيح، لا دم، فقط إحساسٌ من خلالِ التحسسِ على الورم؛ هناكَ شيءٌ صلبٌ في الداخلِ يحاولُ الخروجَ.

- أَضغطُ أكثر، بالتأكيدِ هُوَ قيحٌ متجمعٌ متكتلٌ.

الأصبعانِ يضغطانِ بقوةٍ أكبر، الخوفُ زالَ مع الوثوقِ من عدمِ وجودِ أَلمٍ.

ضغط، وضغط، والكتلةُ المتصلبةُ في الداخلِ بدأت تتحركُ تجاهَ المخرجِ.

صبرٌ، مطاولةٌ، والجبينُ مع باقي الوجهِ تفصدَ عرقًا، ثُمَّ دونَ سابقِ إنذارٍ؛ الشيءُ المتكتلُ قفزَ من فتحتِ الورمِ، كرصاصةٍ أطلقت من مسدسٍ.

سيولُ المادةِ اللزجةِ منعت البحث، والانشغال بالتجفيف، ورفعها من على الوجهِ أخذ جُلَّ التركيزِ.

خرقةٌ تستخدمُ لإبعادِ القدرِ الحار عنِ النارِ، هي الشاش الطبي المعقم الذي جُفف بهِ السائل.

لحظاتٌ قليلةٌ واختفى الورم، عاد الجبين كما كان، لم يبقَ منهُ سوى أثرٍ صغير لندبة بسيطة، كأنَّ مهمةً لهُ أُوكلت، وبعد تنفيذها تقهقرَ إلى مستقره.

- ماذا يحصل لي؟! هذا حلم.. وهذهِ الخرقة المليئة بالسائل!

قبل أن تجيب النفس نفسها، تنبهت الأذن لصوت في المكان.

أُرهف السمعُ يتتبع المصدر، والعين تمشط المكان بدقة، وحذر.

بوقار بيت الأدب

- أظنّهُ أحد الفئران المفترسة التي تهجم على الفتيات الطيبات مثلي، أو "صرصور" متوحش جاء ليحيل ليلي جحيمًا!

تكور الجسد المكتنز على بعضه خوفًا، واستمرت العينان في المراقبة بحثًا عن مصدر الصوت، ورصد أيّ جسمٍ غريب يتحرك.

ها هو وعاء الماء المعدني الذي جلبَ منَ المطبخ ليكون ما فيه عون في ابتلاع الطعام يهتز بطريقة غريبة مريبة، كأنّهُ يعاني بردًا، وحُمى.

بعد التأكد من المصدر؛ نظرة يمينًا، وأخرى يسارًا، لم تقع العينُ إلا على الدثار المتهالك المتسخ ليكون درعًا مُدرعًا يقي من أيّ هجمة محتملة من فأر كبير أَو فرد من أفراد عصابة الصراصير.

أُلتحِفَ الدثار، لم يبقَ منَ الجسدِ، والوجه ما هو ظاهر سوى عينٍ واحدة ومنخار.

الوعاء ارتجف، اهتز، ثُمَّ على جنبهِ اضطجعَ، ولِما فيهِ أسالَ.. لحظات ترقب صعبة، ثُمَّ خرجَ منهُ بعد انتهاء تدفق الماءِ شيء غريب مريب يتدحرج.

- أيا أمي أنجديني.. فأر، فأر، بل جرذ عملاق.

بوقار بيت الأدب Bouvar

عملية زحف، وتدحرج باتجاه الباب، وعلى الظهر ما زال الدرع مستقر.

- انتظري، يا رحيق لا تغادر.

تسمر، تجمد، وقشعريرة سرت في الجلد، والقلب.

- لا تخافي أنا صديق، وأكثر.

القشعريرة اختفت، وظهر بدلها ارتجاف في الأطراف، تسارع في دقات القلب.

حركة لا إرادية بدأ بها الجسد يلتف، كأن الالتفاف ذاك حول الكرة الأرضية، ثُمَّ استقر البصر على مصدر الصوت المنتصب، وهو يبتسم.

الطول قرابة شبر.. رأس كبير مقارنةً بالجسم، وجه دائري فيهِ عينين واسعتين سوداء جميلتين دائرتين باسمتين، أنف مستدق قصير، وفم يبتسم ذو شفتين غلاظ كبيرتين، أذنان كبيرتان تصلان حتى الكتف، وبضع شعرات على الرأس، اليدان متناسقتان مع الجسد، وهما كيدي البشر فيما عدا الأصابع، فعددها أربع، والقدمان كبيرتان في كل قدم ثلاثة أصابع.. يستر الجسم لباس من قطعة واحدة عبارة عن قميص أحمر يغطي جسده حتى أسفل ركبتيه، ويمسك ذاك

بوقار بيت الأدب Bouvar

الشيء الغريب الناطق في يده مفتاح ذهبي اللون يبلغ طوله ما يعادل نصف قامته.

خوف، ذهول، والشفتان مع القلب ترتجفان.

- مممماااا أأأأنتَ؟!

بلطف، وظرف بث خلالهما الطمأنينة.

- ما بك أي رحيق، ألم تعرفيني؟! أنا "كشمش" أنسيتني؟!

الحيرة فوقها حيرة.

- كيف لي معرفتكَ، وأنت على ما أنت عليه؟!

ضحكة زرعت المزيد من الطمأنينة.

- أنا "كشمش" صديقك في أحلامك.. ألا تذكرين؟!

علامات التعجب زاد عددها على الوجه، ثُمَّ جلوس، واستقرار على الأرض.

- هل لك بتذكيري أرجوك؟

خطوة، فأخرى قابلها رجاء البقاء محله.

- حسنًا، لا تخافي مني، سأذكرك بنفسي؛ أتذكرين الصوت الذي كان يكلمكِ في أحلامكِ، ويهدئ من روعكِ، ويبعد عنك الأشرار؟

- نعم، كان صوت أبي أظن.

- إنّهُ أنا، أتذكرين عندما كنتِ تسرحين بخيالكِ، وترسمين صور لأخ صغير لكِ؟

- كنتُ أتمنى أن يكون لي أخ شقيق يدافع عني، ويمنحني دفء الأمان.

- إنّهُ أنا.. استدعيت من منزلي على عجل، وتكونت في داخل عقلك، تغذيت من طيبة قلبكِ حَتّى أتمكن من الخروج، والتعامل مع عالمكِ؛ لأساعدكِ في التخلص من الحزن الّذي يخيم على هذا المنزل، وهذا لأجلك أنتِ، فصار أمر عودتي إلى عالمي مرتبط بخلاصكِ.

- ما هذا يا هذا؟! أقصد يا كشمش، أنا مجرد فتاة، ما عساي أن أفعل؟!

- سأخبركِ بسرٍ خطير، وأطلعك على السلاح المدمر الذي تملكين، وبعدوك الذي يجب أن تهزمي.

اقتراب خطوات، لم تحصل ممانعة كما في أول مرة، فالقلب بمحبته امتلأ، والنفس لقربه اطمأنت.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- يوجد وحش خطير شرير في مكان هنا تحت منزلكم، يعيش منذ زمن، تتغذى روحه على كراهية أمك، وخطايا عمكِ، هو الآن في أوج قوته، وبدأ بغزو قلب عبد الحميد، بعدها سيحاول الوصول إلى قلبكِ.. ذاك الشرير يُعرف في عالمه باسم "إرّا" غول الطعام النهم الأكول.. قوته يستمدها من مشاعر الكراهية في بيتكم، أما فاكهته ومتعته هي خطايا عمك أثناء احتسائه محرم الشراب، وشتمه لأمك.

حركة عفوية، اقتراب لاكتشاف ذلك المخلوق الذي صار محبب إلى القلب.

لمسة بالإصبع للوجه، ثم ابتسامة متبادلة، فضحكة، فتعديل جلسة، وقفزة من كشمش ليستقر في الحجر، وللخد يقبل.

- أنتَ مذ اليوم أخي الصغير، اتفقنا؟ ضحكة جميلة.

- اتفقنا، لكن اعلمي أَنّ بقائي هنا معكِ لن يطول.

حزن، ولهفة.

- لِمَ؟! أرجوك ابقَ.. لم يتحدث أحد معي بلطف حَتّى ظهرت أنتَ.. الجميع يهزأ بي ويزدري، حَتّى في الخارج كذلك.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- لا عليك منهم، فالنّاس لهم الظاهر، لا يعتبرون للقلب الطاهر، فالصفاء والجمال هو ما في الداخل لا الخارج، القشر يمكن تغيره في لمح البصر، أما الجوهر لا يتغير.

- كلامك صحيح، أنا اعتدت على ذلك.

- سيتغير ما اعتدتِ لحظة إنهائك المهمة.

- أيّ مهمة؟!

- نسيتِ بسرعة؟!

- لم أنسَ، لكن لم يكلفني أحد بشيء.

- مهمة القضاء على "إرّا" وأنا سأكون مساعدكِ ومرشدكِ فيها، رغم أني لن أستطيع تقديم شيء لك في أهم جزءٍ من المهمة.

- على مهلك، واحكِ لي ما المطلوب مني.

- ما هو أكثر شيء تتميزين بهِ؟

الإطالة في التفكير، والتعمق بالبحث بين ثنايا العقل، ولا شيء يوجد ممّا أعتقد أنّهُ المطلوب.

- للأسف لا أتميز بشيء؛ فلا دراسة، لا جمال، لا رشاقة، ولا أيّ شيء يذكر ممّا تتميز بهِ الفتيات.

لمسة رقيقة من الكف ذي الأصابع الأربعة على الخد الجميل المنتفخ.

- بل لديك الكثير، لكنّ ما يعنيني الآن هو شيء واحد فقط.

- ما هو؟!

- إعداد الطعام بطيبة نفس، وحب رغم كلّ الألم، والكره الذي يحوم حولكِ.

ضحكة استهزاء بريئة..

- أقتل غول بإطعامه باذنجان مطعم حبًا أو حساء مغمس بالقبل؟!

استمرت الضحكات حتى أنهاها صوت كشمش.

- هذا هو السلاح الذي سيقتل النتن.

قطب الحاجبين، وعلامات الاستغراب على الوجه الطفولي لاحت.

- كيف يا صغير؟!

اليد تربت على الرأس برقة وحنان..

- دعي رأسي أولًا، حركاتكِ تشعرني بالنعاس، وإن نمتُ لن أستيقظ مدة عام.

سحبت اليد، كأن تيارًا كهربائيًّا صعقها.

- أقول لكِ ما عليك فعله: نذهبُ إليه، ثُمَّ تقومين بإعداد الطعام من طازج الخضر، وخير خيرات البيت، تذكري أنّ عليك إعداده بحب كعادتكِ، ثُمَّ تقدمينهُ لهُ، يأكل، ينتهي كلّ شيءٍ.. هذا ما في الأمر ببساطة، ويسر.

- بسيطة هي بساطتكَ، ويسير يسركَ!

ابتسامة من الصغير، ولمعة في العين بعد الإحساس بالعبقرية.

صوت منخفض.

- أنتَ قلتَ لي أنّكَ تكونت في داخلي، و...

- أجل، ثُمَّ ابتسامة عريضة.

- إذًا منَ الطبيعي أن تكون أحمقًا.

زجرةٌ بصوت منخفض جدًا.

- انهض عن حجري.

مصدوم حائر نهض يجر مفتاحه معه.

- ما بكِ؟! لِمَ هذا التعامل الغير لائق؟!

بوقار بيت الأدب Bouvar

- ألّا تعرف؟! كيف لي الوصول إلى ذلك الغول الأكول، وأنتَ تقول إنّهُ تحتَ الأرض؟

ابتسامة عريضة ظهرت خلالها أسنانه المرصوفة الجميلة، ثُمَّ بدأَ يضرب بمفتاحه الأرض ويقول: بهذا عزيزتي؛ هذا هو مفتاح الباب المؤدي إلى الهدف.

عقدت اليدان على الصدر، وبعين الانزعاج إلى الصغير بدأ النظر.

- أين الباب يا حباب؟

بسرعة ناحية مكان النوم المعتاد انطلق، ثُمَّ ازاحةٌ لما تبقى من فراش، وتحته مباشرة لبلاطة واحدة خلع.

بوقار
بيت الأدب

- تعالي اقتربي.

- ما هذا؟!

- مكان المفتاح، سأضعه في مكانه عندما نكون جاهزين، ثُمَّ أديرهُ، فيفتح لنا الباب، وننطلق.. علينا إنهاء المهمة قبل الفجر، وإلا سنبق حبيسين في الأسفل مدى الدهر.

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

- هذا عز الطلب، البقاء في باطن الأرض مع غول أكول، وصديق صغير، لكن ما دام الأمر فيه سعادة عائلتي لا يهم؛ أمي تستحق مني العناء، وإخوتي، عليّ المخاطرة لأجلهم، لكن انتظر لحظة؛ من أين لنا بالخضار وباقي مواد إعداد الطعام؟

- ممّا موجود لديكم في البيت، أليست أحشاء الثلاجة محشوة؟

- هذهِ سرقة يا أستاذ، أنا لا أسرق أبدًا.

ابتسامة لئيمة، فخطوات، وهمس في الأذن.

- اللحم المشوي مع الخبز والجبن، ماذا تسميها، استرداد حقوق مثلًا؟

- تلك ليست سرقة؛ طعام فائض أُسد بهِ جوعي، ماذا أفعل؟ أنا لا يمر عليّ يوم إلا عوقبتُ بحرمان من طعام أو شراب.

مسك للأذن باليد الصغيرة، وسحب بلطف.

- سد الجوع بطعام يكفي حصان؟!

غيظ، وانزعاج.

- كشمش، تجاوزت حدودكَ مع أختكِ الكبيرة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

نظرات حزم لم تطول، ثُمَّ انفجر الاثنان يضحكان.

- صهِ، سيستيقظ الجميع، هيَّا بنا إلى المطبخ نجلب ما نحتاج للمهمة.

انسلال إلى المطبخ، والحصول على ما يُحتاج لهُ لإعداد حساء العدس بالخضار.

- هيَّا بنا الآن إلى الباب، ندخل أرض السراب.

- هيَّا كشموشي.

- ما هذا الاسم الذي ناديتني به؟!

- اسم الدلع خاصتكَ.

- أوقت دلع الآن؟

- عندما أتوتر أو أحزن ألتجئ لأطلاق النكت، والمزح.

- هيَّا أسرعي، الوقت ليس لصالحنا.

وضع المفتاح في مكانه المخصص، وعند إدارته جهة اليمن بدأت أرض الغرفة تهتز، ظهر شق صغير على شكل مستطيل، ثُمَّ برز الباب وأخذ يفتح تلقائيًّا بهدوء، وهو يصدر صوتًا خاصًا بتزحزح الحجر عن مكانه.

- انتظري حتى يكمل الباب مهمته، فننطلق.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- فقط أريد النظر لأرى ما الخبر الذي خلفه.

- اصبري لحظة.

- حسنًا، صبرنا.. أُف.

اكتمل فتح الباب، ظهر نفق عميق مظلم أوله سلم.

نظرة منزعجة تجاه كشمش.

- الآن عزيزي، كيف نسير في هذا الظلام الحالِك؟

ابتسامةٌ تنشر الثقة، ثُمَّ بإصبعي كفهِ الأيمن أحدث فرقعة، فأضاء كفهُ بالكامل، كأنّهُ مصباح كهربائي.

- ماذا بعد؟

انبهار بانَ على الملامح، ومحاولة تغطيته بادعاء عدم الاكتراث.

- لا شيء، هيَّا بنا، أنتَ تُضَيع الوقت بكثير تباهيكَ.

الصغير أولًا على السلم، درجة بعد الأخرى، المكان لا مريب، ولا غريب فيه، فلا يرى سوى السلم، وما حوله ظلام دامس، كأنّ الصغير تعمد ألا يُري سوى ذلك.

- كشمش.. يا كشمش.. كشموشي.

ممتعضًا منزعجًا.

- نعم، أجل، جيرِ، ما بك؟

- أُحس أن السلم يأخذنا إلى أعلى، وأرى نفسي أتقدم نزولًا، والسلالم تظهر أننا ننزل.. ما الأمر؟!

- أمر طبيعي، أنتِ في أرض السراب الآن، كلّ شيء فيها يجانب الصواب، ركزي في الحفاظ على توازنكِ، إياك والاستسلام للأوهام مهما حصل، كل شيء تحسينه محاولة خداع، وكل شيء ترينه نصف الحقيقة، فقط وجهي عقلك وقلبك على هدف واحد.

- ما هو؟!

- أواهٍ، تخليص أهلكِ.

همس كي لا يسمع المتنصتون، ولا يعرف بالخبر المتطفلون.

- تخليص أهلك منَ الشرير، الطبخ بحب.

- أظنّ أنا وأنت سنكون الطبق.

ضحكة أطلقت من الفم الجميل قابلها انزعاج من الجسد الصغير.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- أنتِ مجنونة، هذا هو الوقت المناسب للضحك؟

لا تقسُ عليّ، أنا مجرد فتاة يحدث معها كلّ هذا الذي لا يصدق حَتّى في كتب الأساطير.. معجزة أني ما زلت على قدمي أسير.

- أتمنى أن تزيدي على معجزة سيركِ إقفال فمكِ.

- صمتْنا.

صوت شبه مكتوم يخرج.

- ألا يرى الفارق في الأحجام، أم لأنّهُ يملكُ كفًا مضيئًا، ومفتاحًا كبيرًا يجبُ أن يكون متسلط متحكم؟ لا فائدة.. كلّ مَن يحمل صفة الذكورة هذا حاله، كلهم هكذا؛ مساكين مرضى نفسيين.

بابٌ كبيرٌ من ضفتين في وسط كلّ واحدة حلقة نحاسية، وعلى الباب نقش غريب؛ رموز وحروف، وخطوط لا يفهم منها شيء.

- الآن كيف سنفتحه، وندخل؟ أتحمل مفتاحًا لهذا؟

- لا أحمل، لكن كحال مَن يريد دخول بيت أحدهم؛ نطرق الباب بأدب، وعندما ندخل إياك والذهول أو الخوف، والاستغراب.. إياكِ، ثُمَّ إياكِ، سيقضى عليَّ، وإياك.. ادعي اللامبالاة وعدم الاكتراث، كأنّكِ من أهل المكان.

اليدان تمتدان إلى كشمش، وعلى رقبته تطبق.

- أيُّ بلاء ستجلبه لي يا صغير الحجم والعقل، أعدني إلى غرفتي لا أريد شيئًا، راضية بما أنا عليه، فقط أعدني.

بكاء حار.

كشمش يقول: لا مجال للتراجع الآن.

- لِمَ لا؟ سلم نعود من خلاله أدراجنا.

- انظري خلفكِ تعرفين.

- يا إلهي أين ذهب السلم؟! ما هذه الهوة التي خلفي؟! متى تشكلت؟!

- لن نتمكن من التراجع خطوة؛ علينا الاستمرار قدمًا.

الجسد يرتجف، والجبين مع باقي الوجه بات للعرق موطنًا، والعينان بالدموع أبحرت، والخد نهر بالدموع فاض.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- أنا أغبى كائن حيّ على وجه الأرض.

- بل طيبة قلب، ودفعك حبك لغيرك إلى المغامرة؛ لذا علينا إتمام ما بدأنا على أكمل وجه؛ فقط ثقي بنفسك ثُمَّ بي.

دقائق صمتٍ، بعدها نطق اللسان.

- هيَّا نبدأ.

- أمستعدة؟

- بالتأكيد لا، لكن ما الحل؟ أنبقى هنا ننتظر باص الجحيم حتى يأتي ويقلنا إلى بيت إبليس مثلًا؟ اطرق الباب، لنرى ما سيحصل من كوارث.

- ارفعيني أرجوكِ؛ لكي أصل للمقبض النحاسي.

كلتا اليدان، ثُم بقوة سحبت الحلقة، فأطلقت لتعود وترتطم بالباب.

صوت لهُ رنين عالٍ مزعج طاف صداه في الأرجاء.

صوت أشبه بصوت الجرس الكبير حين يدق.

صمت ساد بعد جلبة، بعده انطلق صوت آخر مصدره من خلف الباب، ومعه غبار من أسفل الباب ارتفع.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- مَن الطارقُ؟

صوت يشبه صوت جبل يتحرك من مكانه.

على السائل كشمش يجيب.

- مسكينان طالبان للعطف، والتفضل من سيدهما "إرّا" جاءا للطبخ، والإطعام

حَتّى تحل عليهما بركة الظلام، ويرضى عنهما سيد الأحزان.

الأصابع تنغز الصغير، والفم يطلق الكلمات.

- ورطتنا لن يفتح لنا، ما هذا الكلام الذي قلته؟! كان عليَّ أنا الكلام.

كمشمش لا يجيب فقط بقيَ صامتًا.

دون مقدمات تحرك الباب بضفتيه، ومع صوته المزعج بدأ يفتح ببطء.

كلمات من الفم خرجت قبل صمت دام وقت لا بأس به.

- شاهدتُ هذا المشهد في أحد أفلام الرعب؛ ستأكلُ البطلةُ الجميلةُ، ويهربُ

مرافقها الجبان.

رائحة كريهة انبعثت كأنّها لخنزير مات في صحراء مذ أيام.

جال البصر يتفقد المكان، تحركت الأقدام بخطوات حذرة مرتبكة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

مكان غريب، قذر مريب، تفوح منه الروائح المزعجة، أوانٍ وقدور، وموقد نار مستعر.

قاعة كبيرة تحمل سقفها أعمدة سوداء على شكل جرذان تقف على قوائمها الخلفية، وتسند السقف برؤوسها.

لحسن حظ المهمة أنسى المنظر المرعبة الشابة رحيق فوبياها التي تعاني من الفئران وأقاربهم كبار الحجم، فأمن منَ الصراخ، والركض بعيدًا.

الخطوات تلو الخطوات حَتّى بانت الرؤية الواضحة منذ أول خطوة.

سرير كبير مصنوع من حديد، وحجارة يستلقي عليه مخلوق غريب الهيئة، عجيب المنظر؛ جسده ككيس أسود عملاق مُلئَ بسائل ما، لا يظهر منه سوى رأس ضئيل بحجم رأس طفل رضيع؛ له عيون خمس، وأنف، الفم يحتل نصف الوجه، ولا أسنان فيه، من الجسد على الجانبين نتوءين صغيرين، كأنّهما اليدين.

الرائحة النتنة فوق التصور، ومصدر النتن كلهُ منبعهُ الجسد المرتج.

كشمش ينحني، ويشير للرفيقة بفعل المثل.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- أهلًا بكِ يا رحيق، أخيرًا رقَّ قلبكِ الكريه المليء بالحب السخيف، والطيبة المقززة؟

الصغير قلق مما ستنطق الزميلة، وتقول.

جرت الكلماتُ على اللسان كالسيل.

- رقَّ، ويكره العام كلهُ، رقَّ ولكم جئتُ أبدي الاحترام، ولحضرتكم أنحني بإجلال وإكرام.

صوت غريب بين الضحك، والبكاء اهتزت لهُ أركان المكان، ورائحة صاحبت الصوت من بشاعتها تقتل حَتّى الذباب مصدرها فم الغول.

- ما هو برهان صدق ادعائكِ؟

- جئتُ لكم بمفاجأة أرجو أن تصبروا عليَّ لحين تجهيزها، هي برهاني لما قلتُ وادعيتُ.

صوتٌ آخر أشنع من الأول.

- لنرى.. اعتبري نفسك في بيتك.

الفتاة والصغير ينشغلان بإعداد الطعام.

بوقار بيت الأدب Bouvar

ساعة، والثانية أزفت على الانتهاء.

- سيدنا البشع الجشع الحساء جاهز، وللدخول إلى معدتكِ متشوق.

- ماذا أعددتِ أيتها الصغيرة؟!

- حساء عدس.

- طعام بشر؟! لم يسبق أن جربته.. متأكد أنّهُ سيروق لي.

- أأسكب لك شيء منه؟

نظرة، فحركة بالفم تشبه الابتسامة التي توشك على الموت.

النتوء الذي يشبه اليد تحرك فاهتز القدر، وارتفع من على النار، راح يحلق في الهواء، ثُمَّ إلى ناحية الغول اتجه.

استقر القدر طافيًا، وفوق رأس "إرّا" واقفًا.

فم الوحش يتسع شيئًا فشيئًا حتى اختفت ملامح الوجه تمامًا، وصار الرأس عبارة عن فتحة دائرية، ثُمَّ أخرج القدر ما في داخله على شكل سيل دافق.

الحساء يدخل بتتابع حتى آخر قطرة منه.

بوقار بيت الأدب Bouvar

رحيق في أعماقها تقول: أحبك أمي أحبكم أخوتي، حتى أنتَ يا عمي أحبك ولست ناقمة على أحد منكم، أحبكم ولو كانت سعادتكم مقابل حبسي وهذا الغول للأبد موافقة.

بدأ القلب يدق بسرعة في انتظار اللحظة المنتظرة.

عاد القدر ليستقر بعيدًا، عادت ملامح الوجه للظهور مجددًا.

كلّ شيء عاد كما كان.

- طعام لذيذ رغم غرابته؛ أنا قبلتُ هديتكِ.

الصمت سيطر على الاثنين.

أحس الغول بأمر فيه مكر، فعلى صوته.

- ما بكما؟ أرى وجهيكما قد اختلفا كأنكما كنتما تنتظران غير الذي تريان الآن.

تحرك النتوء حركة سريعة بسيطة، فارتفع كشمش، وبالسقف التصق، ثُمَّ اتجه النظر إلى الفتاة، وهمَ بتحريك النتوء الآخر ليلحقها بزميلها، لكنَّ صوتًا مصدره الجسم المرتج قاطع الأحداث وأوقفها.

كان الصوت أشبه بصراخ بطن جائعة.

- ما هذا؟!

حدث الغول نفسه مستغربًا.

الجسد بدأ يتغير، وسقط كشمش على الأرض.

انتفاخ، انفتاح، وانتفاخ.

الغول يصرخ بقوة صراخ يشبه صوت الطفل الرضيع، رأسه يتضاءل أكثر، وجسده يكبر، ويكبر.

صرخ الصغير برحيق.

- هيا اركضي ناحية الباب بسرعة.

الأقدام تسابق بعضها، والمخرج صار، كأنّهُ على قمة جبل شاهق.

الأعمدة التي تسند السقف أخذت تهتز كأنّها تعود إلى الحياة.

صرخات لهول الموقف، والأعمدة تعود لأصلها قبل لعنها؛ مجموعة جرذان صغيرة.

مع أول خطوة خارج الباب ظهر السلم، وعصفت من الداخل دفعت الاثنين بقوة، تبعها صوت انفجار مدوي، وتحطم، بعدها أغلق الباب بشدة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

كشمش يصرخ.

- إلى الأعلى بسرعة، لم يتبقَ وقت، اركضي.

احمر الوجه أكثر فأكثر، والعرق يتصبب، والانفاس لاهثة، والقدمان متعبة.

أخيرًا على أرض الغرفة الصغيرة، والمدخل أوصد وهو يزمجر قائلًا: هذه النهاية، لن أفتح بعد اليوم أبدًا.

الوجه حذاء الوجه والعين على العين تلقي النظر، الأنفاس لاهثة، ثُمَّ عجَ المكان بالضحكات.

الذراعان فتحا على مصراعيهما.

- هيا "كشموشي" الحبيب تعال لعناق طويل.

قفزة سريعة، وعناق جميل طويل، ثُمَّ قائل: قد آن وقت الرحيل.

الحاجبان عقدا، والقلب خفق حزنًا، والوجه تجهم، وانزعج.

- لِمَ الرحيل؟! أريد بقائكَ معي حَتّى آخر العمر؟!

- انتهت مهمتي، ومعكِ اكتملت رحلتي، عليَّ العودة لأرض الأحلام حيثُ أنتمي.

بوقار بيت الأدب Bouvar

نظرات متفحصة للوجه البريء، ثُمَّ أكمل: لا تقلقي سأتركُ لكِ شيئًا مميزًا جميلًا هبةً لكِ ولنسلكِ.

الدموع انهمرت، وعلى الخدين جرت.

- أريدكَ أنتَ، ابقَ معي؟

- لا أستطيع، إن ارتفعت وأنا في عالمكم سأحترق، وأتحول إلى غبار، فهل يرضيكِ ذلك؟

الذراعان تحتضنان الجسد الصغير بقوة، وحنان.

- لا.. لا، كيف يرضيني؟!

- إذن دعيني أغادر، وسأتركِ لك على هذا الحائط.

أشار إلى أحد جدران الغرفة الصغيرة.

- أتركُ نافذة صغيرة من خلالها إلى عالم الأحلام تنظرين، وبالمناظر الرائعة تستمتعين، لا يراها غيرك ونسلك؛ أما الآن سأرسم على جبينك قبلة تنامين بعدها، وستستيقظين على أروع منظر.

***

- رحيق، يا رحيق استيقظي يا نؤوم؟!

العينان تفتحان بكسل، والجسد قد تمكن منه التعب.

- أوه، كشمش اتركني أنا متعبة.

فتحت العين جيدًا، فقفزت من الفراش، والخوف غزى الروح، والنفس تستعد للعقاب المؤلم.

وجه باسم وضاء، وذراعين مفتوحين.

- ما بكِ صغيرتي، تعالي إلى حضني اشتقت لكِ، تعالي حبيبتي.

صدمة، والتعجب من سماع تلكَ الكلمات، فضحكة.

- أما زلت أحلم؟!

- لا، ليس بحلم؛ هيَّا بنيتي لأضمكِ، فحضني مشتاق لكِ.

هذه هي قصة رحيق، سردتها على مسامعكم أحبتي بعد مضي خمسة وثلاثون سنة من حدوثها، تزوجت خلالها رحيق وأنجبت بنتين جميلتين الصغرى اسمها أريج والكبرى أنا زهرة، قصصت لكم القصة وأنا أقف أمام نافذتنا السحرية التي تطل على عالم الأحلام حيث كشمس وعائلته الجميلة يتجولون في حقول

بوقار بيت الأدب Bouvar

الياسمين يجمعون عبير الزهور؛ لينشروها في أحلام الصغار كلّ ليلة.. عالم كشمش لا يعرف إلا الضحك والبهجة.

"النهاية"

بوقار
بيت الأدب

بوقار Bouvar بيت الأدب